الجـــارم البرىء

للأستاذ حبيب الزحلاوى

تتمـــــة

لقـد انقلبت طفلا ولابستنى حالة جـديدة ليس فى وسعى تصويرها . صرت أرعى زوجى الحـامل كرعاية الأم رضيعها ، وأحرص على القرش الواحد كما لو كان ديناراً ذهباً . كنت اصدف عن الصـحاب وازور إذ ألقى ضيوفا فى منزلى ، وددت لو أحتاز خيرات العالم أقدمها هدية لولدى العزيز . قلت لصاحبى فى شىء من المباسطة بنية إقشاع السحب المنتشرة — فوق نفسه ، يخيل إلى أن « العامل الخفى » فى زوجتك هو الذى جملك لجوجا وثابا تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصور . وقد لايؤذيك اذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق إن بلوغك « سر المرأة » ابتعث فيك الشهوة عنيفـة حادة . اطرق قليلا وأجاب « الشهوة حيلة ارادة الحياة الكبرى على البقاء » نحن يا صاحبى نخلق الجمال ونعطى المعانى للاشخاص والأشياء . فالمعنى الصحيح لسر المرأة الراحة والطمأنينة . صمت هنيهة ثم اردف « أن رجلا مثلى مفطور على العناد — والمغالبة والكبرياء لايرضيه الاستسلام والليونة والركون شأن أكثر الأزواج ... ثم تابع قوله كانت زوجتى ... فقاطعت كلامه قائلا : انتقال من الموضوع بارع ثم تقول . كانت زوجتي ، وكانت هذه تدل على فعل ماض ، فأومأ ان أتريث وتابع الكلام ، كانت زوجتى ، أجل كانت زوجتى على شىء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذى انميت فيها هـذه الصفات وتعهدتها بدراية وحكمة ، كان يلذ لى أن تعلو حجتها على حجتى فأرضخ للحق ، وان يصدم عنادها عنادى فتنتهى الى الرضا . ولم يبلغ كبرياؤنا فى ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نورى بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات المجهول ، من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية ، وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب فى فوضى الحياة خيطا كان لنا بمثابة « الهارمونى » من نشيد العمر ، يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الانسانى الى أسمى مقام ، أما خيط حياتى هذا فقد انقطع ، أنا الذى قطعته بيدى ، أجل يا صاحبى أنا الذى قطعته بيدى . لقد حطمت جرة السـمن فانبلقت أحلامى ، أنا الراعى الغبى ، وانساح أملى فى الرمل ، أنا الحى الضائع ! ! نظرت الى عينيه فاذا بنورهما قد ناص كمصباح نضب زيته ، وأجفانهما تكسرت وجدت فيهما دمعتان ، وعنـدما أخذ يتابع الكلام توهمت — الصوت آتياً من بعيد قال ، ذهبت وزوجتى ذات عشية الى وادى المرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً قرب النهر حتى توافد الصحاب ، فاتسعت الدائرة ، واتسقت صفوف الاقداح وشمشمت النفوس فانطلقت الألسنة . لم تهـدأ جلبة السكارى الا حين ارتفع صـوت المغنى يشدو « العتابه » برنين شجى وصوت رخيم تشـترك مع معانى العتاب فى تطريب النفس — واثارة مافيها من حزن وفرح وقد استفاض صـدرى باحساس مضطرب إذ سمعت المغنى ينشد « غربوا أحبابى » وشعرت كأن أحبابا تنادينى ، لقد فاض الدمع من عينى وانهمر ، لا شك انه دمع حنـان النفس التى تضطرب فيها الآلام جميعاً ! ! ! ، فى هذه اللحظة تلاقت نظراتى بنظرات زوجتى ، فاعتلج فى صـدرى شوق مفاجىء يدعونى بالحاح الى العودة الى أميركا حيث أموالى المتروكة فى بلاد الناس ، وعندما عدنا الى البيت سألتنى زوجتى متى نسـافر الى أميركا ؟ فى تلك الساعة عقدت النية على العودة الى الوطن الثانى ، وفى تلك الليلة المشـؤومة انتهى كل شىء ! ! ، أجل يا صاحبى فى تلك الليلة الملعونة انتهى كل شىء فى وجودى وبقيت وحدى كحروف رسالة بليدة جاثمة على قرطاس ، أخذ صوته يرتفع ونبراته تشتد ، وأمسك يدى بقبضة متصلبة وقال أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لايفصلهما من الجيران فاصل ، قلت أعرف ذلك ، قال : كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لانه أقرب الى احساسى وألصق بذكريات طفولتى ، هـذا البيت الذى كنت إخاله بقعة اقتطعتها الملائكة من فراديس النعيم قد انقلب بلحظة واحدة الى قبر فى الجحيم تحوطه نيران قلبى وألسنة الناس ، قلت : أكتشاف خيانة ؟ ، نظر إلى نظرة استخفاف خلتها تهز مكمن كبريائى

فخجلت ، واستطرد قائلا : فى هدأة الليل حيث كل شىء هادىء إلا عيون السماء ، دوى الوادى أو توهمت أنه دوى بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع ، الحرامى ، الحرامى ... النجدة ... النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل أولاد ... استيقظت بلا وعى أترنح من الذعر أو من الشجاعة ، تناولت مسدسى من تحت الوسادة وهرعت لأقتنص السارق ، لم يكن فى وسعى ترتيب التصورات المتداعية والخيالات التى تراكت فى ذهنى وازدحمت فيه مبلبلة مشوهة ، توهمت السارق عميداً من عمداء الجبابرة سلطته قوى مجهولة تتربص بى لتنتزع منى زوجتى أم ولدى ، ووارث أموالى ومخلد ذكرى . لقد جن جنون أنانيتى وثارت فى فطرة ، فطرة الانسان ، أو غريزة لبوة بكرية اقتحم وحش ضار عرينها فهبت تدافع عن أشبالها ، كنت أروح وأجىء وأتوهم انى أقفز من سطوح الى سطوح ، ادور حول نفسى كاللولب ، أنادى السارق بصوت متهدج أجش ، اختلط صوتى بعجيج أصوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك بالسارق ، إن السطو على منزل فى رحلة عروس مدن لبنان انما هو تحد لكرامة أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم ، لمحت شخصاً ماثلا قبالتى فتصورته عملاقا من الجن ينقض على ، أحسست بالعملاق الجبار يرفع يديه ليسحقنى ... اطلقت رصاصة أو انطلقت من المسدس رصاصة ردد الوادى صداها . أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك ، أيقظنى الانتصار من غفوة الذهول ، فتنبهت الى نفسى واذا أرى حولى طائفة من الجيران أقبلت على صوت الطلق النارى ، سمعت صراخاً وعويلا وحسرات فيها كل معانى الألم والحزن والشفقة ... أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ، تبينت الوجوه ، فاذا بالعيون — تحدجنى بنظرات أسى وحيرة ملتاعة مضطربة ، دهمنا الجند فاذا بهم يطبقون على القاتل يجردونه من سلاحه وقد دل الجيران عليه . يا للأجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم لقد منوا على — تكرما منهم باطلاق حريتى ريثما أرافق جثمان زوجتى فأواريه التراب ؟!!! ، وبلاه لقد جمد جسمى فى تلك الساعات وتبلد شعورى وزاغت نظراتى ، كنت اعتصر عينى ، استجدى قلبى قطرة من دمه ، ولسانى كلمة واحدة انطق بها ، كنت أرى جثمان « عنى » مسجى فى النعش على رأسها أزهار الليمون الذى زانته بها يوم اكليلنا وقد غطى الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جموداً وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامى أصورها لك وفق الرؤى والشعور ، أحسست الأرض تدور بى والآلام تنساب فى نفسى تنهب وتنوش أعصابى . أما محدثى فقد اعتدل فى جلسته واشتدت نبرات صوته وقال : من السخرية الاستعانة بالعدل الإلهى واحترام شرائع الناس ؟ ! ! أليس رعونة أن تبرأ ساحة القاتل ويطلق من عقاله ولما يجف دم المقتول بعد ؟ أليس ظلماً أن تعاد إلى حريتى أنا القاتل الأثيم ؟ أين القصاص من الحياة ؟ أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع فى الشوارع ، أطوف حول الذكريات ألتمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟ ؟ اسمع ياصاحبى ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها تستطيع أن تشفى أدواء الناس ، انما الذى يستطيعها هو الضمير ، . وسأنفذ أحكامه التى أرتضيها لنفسى حاكما محكوما . استسلمنا كلانا للصمت : توهمت صاحبى المسكين لايواصل رحلته إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء يتطوع للحرب حتى الموت ولكن سرعان ما استلمح هذا الخاطر يتوارى فى طيات كلامى حتى قال لى ضاحكا : أتحسب الموت يقضى على الموت ؟ قلت لا أفهم ماذا تعنى . قال : ولا أنا أيضا أفهم كيف أقضى بيدى على حياة ألقيتها فى غيابات العدم ، بل أفهم أنى سأبقى فى فراغ يتساوى والعدم ، وسأستمهل الموت حتى التى فى كل ساحة ميتة تكفر عن جنايتى . ، طفرت دمعة كبيرة من عينى المسكين فتلقاها بمنديله ، وعند ماهم — بالنهوض تخاذل وخانته قواه ، تأبطت ذراعه وأسندته على كتفى حتى بلغ غرفته فى الباخرة ، وإذ كنت عائداً لقيت الطغمة من الأميركان وقد تهيبوا سؤالى وانصرفوا يتبع بعضهم بعضاً .

حبيب الزحلاوى

الرسالة فى ثوب جديد

ابتداء من العدد المقبل ستزيد صفحات الرسالة إلى ٣٢ صفحة ، وسيتبع ذلك تغيير مهم فى شكلها وموضوعها ، وستباع بقرشين كسائر المجلات المصرية